الأدب الجزائري المكتوب بالفرنسية

مدخل حول الأدب الجزائري المكتوب بالفرنسية وهويته

المقصود بالأدب الجزائري المكتوب بالفرنسية

هو **الأدب الذي يبدعه الأدباء الجزائريون قبل الثورة التحريرية، أو خلالها أو بعدها**. فهو نص لم يكتب باللغات الوطنية كالأمازيغية أو العربية، بل كتب بلغة المستعمر نفسه. ولدى معظم الدول العربية كتاب يكتبون بلغات أخرى غير العربية، بل وفي كثير من دول العلماء يلجأ الكتاب إلى لغات أخرى غير لغاتهم الوطنية للتعبير عن رؤاهم وتجاربهم، إما بسبب الاستعمار أو لأسباب أخرى.

اعتباره أدبا جزائريا

تعود المسألة إلى مباحث الأدب المقارن، فالباحثون فيه يتساءلون إن كان الأدب الذي يكتب بغير اللغة (أو اللغات) الوطنية يدخل ضمن تراث الأدب الوطني أم لا، ويبدو أن النقاش قد انطلق بداية حول قومية هذا الأدب أو عروبته، فإذا نظرنا إلى العروبة (أو القومية) كفضاء يشمل تراث الأمة بغض النظر عن لغته أو دينه فإنه يمكن اعتباره أدبا عربيا مكتوبا بلغات أخرى غير العربية، أما إذا رجحنا النظرة إلى إعطاء الأهمية للغة فإنه لا يكون أدبا عربيا.

وفيما يخص طرح السؤال حول ما كتبه أدباؤنا بالفرنسية إن كان أدبا جزائريا أم لا، فإن المسألة لم تعد تطرح؛ إذ تجاوز الأدب والنقد الأدبي الاقتصار على اللغة في تحديد هوية الأدب.

تقول سعاد خضر (الأدب الجزائري المعاصر، ص: 83): " إذا كان الحديث يدور عن أدب باللغة العربية أو أدب باللغة الفرنسية أو أدب باللغة البربرية فلا يعني ذلك أن هناك آدابا منفصلة تتكلم بهذه اللغات بل إن الأدب الجزائري يكون وحدة متكاملة ساعدت فئات الشعب المختلفة على خلقه كما فرضت عليه الظروف الموضوعية الخاصة أن يستخدم كأداة للتعبير هذه اللغة أو تلك". فجزء هام من النقاش الذي أثير حول الموضوع إنما يعود إلى تصور غير دقيق للأدب نفسه؛ أي إلى تجزئته والتفريط في وحدته.

وتوضح سعاد خضر (م س، ص: 87) أن وضعا شاذا نشأ لأن الفرنسيين حاربوا العربية وفرضوا الفرنسية فصارت لغة التعبير، "وهذا الواقع الشاذ بالذات حتم على الفرنسية أن تلعب نفس الدور الذي كان على العربية أن تقوم به وأصبحت لغةَ التعبير... إن المشكلة كما أعتقد ليست بهذا الشكل المجرد أي أنها لغة دخيلة تقطع الجزائري عن ماضيه وتبعده عن واقع أمته. بل إنني أعتقد أنه ليست اللغة بقدر المضمون الذي تعبر عنه هذه اللغة، هو الذي يحدد هذا البعد عن واقع الأمة، أو التعلق بواقع وحقيقة هذه الأمة".

ومن هنا نفهم قول محمد ديب: " إن كل قوى الخلق والإبداع لكتابنا وفنانينا بوقوفها في خدمة إخوانهم المظلومين تجعل من الثقافة سلاحا من أسلحة المعركة.. ولأسباب عديدة فإنني ككاتب **كان همي الأول هو أن أضم صوتي إلى صوت المجموع من أول قصة كتبتها"** (م س، ص: 85).

يتناول أحمد منور القضية فيقول: (مجلة الموقف الأدبي دمشق 1992 ننقل النص بطوله): " تشكل هوية الأدب الأفريقي والآسيوي المكتوب باللغات الأوربية –ومنه الأدب الجزائري المكتوب بالفرنسية، إحدى القضايا المختلف عليها اختلافاً شديداً على الصعيد النظري في مجال الأدب المقارن. فقد عده البعض أدباً أوربياً باعتبار اللغة التي كتب بها. واعتبره آخرون أدباً قومياً أو أفريقياً باعتبار "الروح" التي كتب بها، والحقائق المحلية التي عبر عنها. وقد ذهب فريق آخر إلى القول بأنه أدب بلا هوية لا تصح نسبته إلى البلد الذي ينتمي إليه الكاتب، لأن ذلك الأدب غريب عنه لغة وقراء، كما لا تصح نسبته إلى البلد الذي تنتمي إليه لغة الكتابة لأنه غريب عنه واقعاً، وانتماء، ولا يربطه به أي رابط سوى رابطة اللغة التي كتب بها.

وواضح أن أصحاب الرأي الأول يلتقون في وجهة النظر مع مقولات مدرسة الأدب المقارن الفرنسية، التي لا ترسم الحدود القومية للآداب بالحدود السياسية ولكن بالحدود اللغوية.

وبالاستناد إلى مقولات هذه المدرسة يكون أي أدب يكتب باللغة الفرنسية مثلاً، أو الألمانية أو الإنجليزية. أدباً فرنسياً أو ألمانياً أو إنجليزياً وهلم جراً. وهكذا وبجرة قلم تلغي هذه المدرسة آداب أمم وشعوب برمتها مثل الأدب النمساوي. والاسترالي، والكوبي والأمريكي، والبرازيلي، لأن هذه الشعوب تتحدث لغات تنسب لشعوب وأمم أخرى، ناهيك بالأدب الهندي أو

النيجيري أو المارتنيكي مثلاً المكتوب بالإنجليزية أو الفرنسية. أما أصحاب الرأي الثاني فواضح أنهم ينطلقون من المضامين القومية التي عبر عنها ذلك الأدب، ويلتقون إلى حد بعيد مع المدرسة الأمريكية. إذ إن ذلك الأدب حتى وإن كان أوربي اللغة فإنه يعبر في معظمه بصدق عن واقع الشعوب الأفريقية والآسيوية. ويستلهم ثقافة تلك الشعوب ويصور تقاليدها الضاربة في عمق التاريخ، وقد تجاوز جزء منه حدود تصوير الواقع إلى تغيير ذلك الواقع، والتعبير عن آلام وآمال الشعوب الآسيوية والإفريقية التي كانت ترزح تحت نير الاستعمار الأوربي. في حين أن أصحاب الرأي الثالث الذين ينفون عن هذا الأدب هويته فيستندون بدورهم إلى حقائق لا يمكن تجاهلها أو نكرانها. فهذا الأدب لا يمتلك من صفة (الأوربية) سوى وسيلة التعبير –كما أسلفنا- فهل يكفي ذلك أن نعتبره أوربياً؟ صحيح أن استعمال لغة معينة من طرف شخص يجعله خاضعاً، شاء أو أبى، إلى منطق تلك اللغة، ولكن ذلك لا يمنعه أبداً من نقل مشاعره الخاصة وأفكاره الخاصة. أما من حيث صفته (الإفريقية) أو (الآسيوية)، فلو سلمنا أنه يعبر حقاً ويصدق عن حقائق بلد إفريقي ما كالسنغال مثلاً، فهل هذا يكفي لاعتباره أدباً سنغالياً إذا علمنا أن نسبة من يحسنون اللغة الفرنسية في السنغال لا يتعدى 5% من السكان، وينطبق هذا على كثير من بلدان غرب أفريقيا مثل غينيا، ومالي، وساحل العاج، والكامرون. ونلاحظ أن اللغة الفرنسية لغة رسمية في هذه البلدان جميعاً، مع لغة ثانية أو ثالثة أحياناً،

على أية حال، نحن من جهتنا. وإن اختلفنا في مسألة إن كان أدبنا المكتوب بالفرنسية أدباً قومياً أم لا. فإننا لا نختلف في كونه جزائرياً، لا سيما أنه ارتبط في مرحلة من مراحل تاريخنا –كما ألمحنا من قبل- بالمقاومة الوطنية والكفاح المسلح، وهذا جانب مهم جداً ليس من السهل التفريط فيه تماشياً مع مقولات نظرية في الأدب المقارن، لا تخلو في نهاية الأمر. من خلفيات قومية، ودوافع غير علمية، ويصدق هذا القول على المدرسة الفرنسية أو الأمريكية على السواء.

بلى، لقد جاء الأدب الجزائري المكتوب بالفرنسية ليشكل –كما يتجلى في أعمال محمد ديب، ومالك حداد، وكاتب ياسين بوجه خاص- الأطروحة المناقضة لأيديولوجية الاستعمار التي طالما روج لها في مجال الأدب. هراطقة الاستعمار أمثال لويس برتران، وروبير راندو، الأول في خرافة أفريقيا اللاتينية التي راح يبحث عنها في الخرائب الرومانية في الجزائر، والثاني في خرافة الفرنسي الجديد .قلت، جاء الأدب الجزائري المكتوب بالفرنسية، مناقضاً لهذا الأدب الاستعماري المليء بالمغالطات، والأحكام المسبقة، والعنصرية المقننة، ليحمل هموم الإنسان الجزائري بجميع فئاته وطبقاته. ولا سيما الفئات الشعبية الفقيرة،

لقد أعطى هذا الأدب للإنسان الجزائري لأول مرة فرصة التعبير عن ذاته كإنسان ينتمي إلى أرض، وكشعب له كيان وله قيم، وتقاليد وهموم وآمال، وهو الشيء الذي ظل الأدب المكتوب من طرف الأوربيين، السياح أو المقيمين على السواء، يتجاهلون، ويصرون على نفيه. وقد ارتقى هذا الأدب ليتحول بحق، خلال سنوات الثورة المسلحة إلى أدب معركة مع "الشقاء في خطر" ومع "الجثة المطوقة"، و"من يذكر البحر"، إلى آخر تلك الأعمال التي شكلت ملحمة الثورة، ولهذا قلت من قبل، ليس من السهل أن ننساق وراء المقولات النظرية ونجرد الأشياء من سياقها التاريخي والموضوعي. لكن تمسكنا بالسياق التاريخي والموضوعية يحتم علينا أن نرجع قليلاً إلى الوراء لنبحث في الأصول الأولى لهذا الأدب، كيف ظهر، ومن هم كتابه؟ وما هي مميزاته؟ وهل كان كله يسير في خط مناقض لإيديولوجية الاستعمار؟".

ملاحظة: بعد 2007 بدأ الحديث عن "أدب عالمي" بالفرنسية *Pour une "littérature-monde" en français*